

الفصل الخامس

جسر بلاك ووتر

«لقد كنا نعلم حتى قبل مغادرتنا الكويت أن هذا العقد

مآله الهلكة»

ت - بوي، أحد المتعاقدين الأمنيين العاملين في
شركة بلاك ووتر، وكان في الأصل مكلفاً بالعمل
ضمن الفريق الذي لقي أعضاؤه حتفهم في الفلوجة

أنا جالس في الحانة التابعة لفندق بيلاغيو في مدينة لاس فيغاس بعد منتصف الليل.
وتتردد في أجواء الحانة أصوات أحاديث النسوة اللاتي يرشفن المارتيني، وأصوات المباحة
الصادرة عن المقامرين بفوز جديد. ويجلس في الجهة المقابلة لي رجل في منتصف عمره،
ذو شعر أشقر خفيف وشارب قصير. وقد يخيل لمن يشاهدنا أننا من رجال الأعمال أو من
وكلاء المبيعات نقضي وقتاً للاستراحة بعد فراغنا من المشاركة في معرض تجاري. غير
أن هذا الشخص الذي يجلس تجاهي هو ضابط سابق من القوات الخاصة، وكان يحدثني
عن معركة الفلوجة، ويتذكر قائلاً بكل هدوء: «كانت الجثث مكمّمة بعضها فوق بعض. وفي
نقطة واحدة كان هناك خمس عشرة جثة، ومن المؤكد أن فريقنا قام بقتل أكثر من 500
عراقي على الأقل في ذلك اليوم، وقد توقفنا عن إحصاء القتلى عند ذلك الرقم». ويتوقع
هذا الضابط أن يحال إلى التقاعد قريباً، ولا يوجد لديه أي نية في التحول إلى العمل في
قطاع المتعاقدين الأمنيين الخاص، ويتذكر هذا الرجل الفلوجة بوصفها أعنف تجربة
مرت عليه في حياته المهنية: فهي هجوم تركّز فيه غضب المعركة كله على بلدة واحدة
بهدف الثأر للهجوم الذي وقع على بعض المتعاقدين الأمنيين. وهي الحادثة التي تسببت
في تعريض تلك المدينة لعردة عنيفة من الدمار».

بدأت معركة الفلوجة في نوفمبر من عام 2004، حين قام ستة آلاف من الجنود الأمريكيين يرافقتهم ألفان من الجنود العراقيين باقتحام المدينة من الشمال لمواجهة رجال المقاومة العراقية ودفع السكان إلى خارج المدينة. وبعد انتهاء المعركة تحوّلت الفلوجة إلى مدينة أشباح بعد أن قضى ألف ومئتا مقاتل وست مئة من المدنيين نحبهم فيها، ولقي سبعون من الأمريكيين حتفهم وأصيب مئتان منهم بجروح بليغة في القتال الذي وقع للسيطرة على تلك المدينة.

خلال المرحلة الأولى من العمليات العسكرية في العراق في ربيع عام 2003، بدأت القوات الأمريكية عملية للاستيلاء على الفلوجة ولكن الأوامر صدرت إليهم بالتراجع. وبقيت المدينة في السنة الأولى من الاحتلال قاعدةً خارجة عن السيطرة، ونقطة جذب للعنف، ومركزاً آمناً لانطلاق عمليات المقاومة التي أخذت تتوسع في المنطقة. وقد كان الجيش الأمريكي يعمل بما يتجاوز طاقته القصوى؛ ذلك أنه لم يكن على استعداد لمواجهة المقاومة العنيفة للاحتلال، إضافة إلى النقص في الرجال والإمدادات الذي كان يعانيه.

وقد فتح هذا الوضع المتسم باليأس والقنوط مجالاً فسيحاً لفرص العمل لشركة بلاك ووتر. وفي تلك الأثناء، كانت بلاك ووتر تقدم خدماتها الأمنية لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية في أفغانستان وباكستان، وكانت قد فرغت لتوها من إعداد ستين من المتعهدين الأمنيين المتعاقدين معها لتولي مهمة تقديم الحراسة الشخصية لحاكم العراق الجديد بول بريمر. وكانت بلاك ووتر تسعى جاهدة إلى توسيع مجال عملها في هذه السوق الأكثر درأً للربح والأسرع نمواً من بين أسواق الخدمات الأمنية في العالم. ولفهم الصورة الكاملة لما حدث للمتعاقدين الأربعة في الفلوجة، فإن من الأفضل أن نبدأ من القمة بدلاً من القاع، ذلك أن بلاك ووتر كانت تتبع في أسفل درجات سلم العقد الذي لقي فيه الرجال الأربعة حتفهم في أثناء تنفيذه.

تتولى شركات كيلوغ وبراون ورووت التابعة لشركة هالبرتون، وهذه الشركات الثلاث التي يشار إليها اختصاراً (كي بي آر) تتولى إدارة العقد المربح الذي أبرمته مع وزارة الدفاع الأمريكية لتقديم خدمات الدعم للجيش الأمريكي على مستوى العالم الذي تبلغ قيمته 7.2 بلايين دولار، ويقوم على أساس من التكلفة زائد الربح، وهذا العقد يعرف اختصاراً بعقد

لوغكاب. وتستعمل شركات كي بي آر في تنفيذها هذا العقد شبكة واسعة من المتعهدين في إدارة عناصر مختلفة من العقد، ويقوم هؤلاء المتعهدون بدورهم في التعاقد مع متعهدين آخرين من الباطن للقيام بجوانب أضيّق من التزاماتهم، وربما يقوم المتعهدون الآخرون بالتعاقد مع مزيد من المتعهدين الثانويين لمساعدتهم في تنفيذ المهمات المحددة الموكلة إليهم- وهذا الوضع يخلق طبقات متعددة من المتعهدين والمتعهدين الثانويين.

وفي حادثة الفلوجة، كانت بلاك ووتر مكلفة بتقديم خدمات الأمن والحماية لشركة ريجنسي للفنادق والضيافة، وهي شركة متعاقدة مع شركة ألمانية للخدمات الغذائية اسمها يورست لخدمات الدعم واختصاراً (إي إس إس)، وهذه الأخيرة كانت متعاقدة من الباطن مع شركة كي بي آر من بين عدد كبير ومتنوع من الشركات التي جرى التعاقد معها للمساعدة في تنفيذ عقد لوغكاب. وحتى ضمن عقد بلاك ووتر، كان هناك متعاقدون من الباطن عهد إليهم شراء المعدات ومهمة توظيف طاقم الإدارة والمتعاقدين المستقلين الذين سيقومون بالمهام الفعلية، وهو ما من شأنه أن يوجد طبقات متعددة من المتعاقدين، والأرباح الناتجة عن تنفيذ مهمة إطعام الجنود.

وكانت سياسة الجيش الأمريكي والخارجية الأمريكية في ذلك الوقت تقضي بعدم توفير قوة حماية مرافقة فردية أو للشركات الخاصة ضمن إشعار قصير الأمد، وإن كانت هذه الشركات تعمل على تقديم موارد مهمة للجيش. ولما كانت كي بي آر ملتزمة بتقديم خدمات النقل والإمداد وفقاً لمعادلة التكلفة زائد الربح، فقد كان من الأفضل لها من الناحية العملية ومن زاوية الربح أن تعهد بمهمة تقديم الأمن والحماية للقوافل التي تنقل الإمدادات إلى شركة خاصة. وقد نافست بلاك ووتر بقوة ونجاح لكسب هذه العقود مدركة أنها متى ما حققت ذلك فإن الأرباح التي يمكن جنيهاً ستكون مضاعفة مع ازدياد الطلب على الخدمات الأمنية.

وتطلب عقد إي أس أس الذي رسا على شركتي ريجنسي وبلاك ووتر توظيف ثلاثة وأربعين رجلاً مسلحاً لحماية عملية نقل معدات إي أس أس وعمالها مدة تسعين يوماً. ولم تكن التقديرات التي قدمتها بلاك ووتر مزيدة صعبة، بل كانت مجرد تخمين بقيمة \$867.033 لتغطية البدء في العمل في الشهر الأول وحسب. ووقعت بلاك ووتر عقداً رئيساً

مع إي إس إس في الثامن من آذار/ مارس وعقداً ثانوياً مع ريجنسي في الثاني عشر من الشهر ذاته.

ومع أن العقد الذي أبرمته بلاك ووتر مع شركة ريجنسي كانت قيمته أقل من 900 ألف دولار، مع اشتراط دفع ثلث المبلغ مقدماً، فإن الكلفة الفعلية كانت بحسب ما يتطلبه العميل. وحدد عقد ريجنسي الوظائف الآتية: وظيفتين إداريتين من «الدرجة الأولى»، 12 شخصاً للحرس الشخصي المرافق من الدرجة الثانية، إضافة إلى 20 عاملاً من الحرس من الدرجة الثالثة. وكان يدفع للموظف الإداري مبلغ 750 دولاراً أمريكياً في اليوم الواحد تقريباً؛ أما العاملون في الدرجة الثانية ممن يتمتعون بخبرة عسكرية أو في مجال الأمن وهم الذين يقومون بالجانب الأمني فيتقاضون معدل 600 دولار أمريكي في اليوم الواحد؛ ويتقاضى العاملون من الدرجة الثالثة - أي الذين لديهم خبرة أقل ويتولون مهمات الدعم والمساندة - قرابة 450\$ إلى 500\$ في اليوم الواحد. ويكسب هؤلاء جميعاً مبلغ 150\$ في اليوم مقابل نفقات السفر أو في الأيام التي يكونون فيها تحت الطلب.

ولغايات بيان الحساب، تقوم بلاك ووتر بإضافة نسبة حصتها من الربح إلى تكلفتها الأساسية من الأجور التي تدفعها، مضافة إليها نفقات أخرى لتغطية النفقات العامة، والتدريب، والمعدات، والسكن، إلى ما هنالك، ثم ترسل بيان الحساب إلى شركة ريجنسي. فتأخذ ريجنسي ذلك البيان وتضيف إليه نفقاتها الخاصة، إن وجدت، ثم تضيف إلى قيمة البيان نسبتها من الربح وترسلها إلى شركة إي إس أس. وتأتي شركة إي إس أس بدورها فتضيف إليها نسبتها الخاصة من الربح وترسلها إلى شركة كي بي آر، فتأتي كي بي آر وتضيف إليها نسبتها من الربح قبل أن ترسلها إلى الحكومة الأمريكية اعتماداً على ترتيبات عقد لوغكاب القائمة على التكلفة زائد الربح. ولا يوجد هناك وسيلة مساءلة أو تدقيق في التكاليف أو مستوى الأداء؛ لأن كي بي آر تعد حسابات عقد لوغكاب سرية ولا تتصح عنها لدافعي الضرائب أو الصحفيين. كما أن قيام أحد المتعاقدين بمناقشة العمل الذي أنجز لمتعاقد مثل بلاك ووتر يمكن أن ينتج عنه غرامة فورية بقيمة ربع مليون دولار، وهو شرط متفق عليه خطياً مع كل متعاقد. وليس هناك أي حافز لتقليص طبقات التعاقد من الباطن؛ لأن كل إضافة من نسبة الربح تستفيد منها جهة ما. وهذا

العقد بالتحديد يمر بأربعة مستويات من الربح قبل أن تقدم الخدمة الفعلية، وليس من المستبعد أن أجرة المتعاقد الأمني الذي يتقاضى 600 دولار في اليوم حين تصل إلى دافع الضريبة الأمريكي تصبح بالآلاف، والتكلفة المقابلة للجندي الذي يتمتع ببعض الخبرة هي \$100 إلى \$250 في اليوم. وحتى لو قام جنرال بأربع نجوم بتلك الخدمة فإن التكلفة لن تتعدى \$450 في اليوم.

ومع أنه قد قيل الكثير عن الأجور المرتفعة التي يتقاضاها المتعاقدون الأمنيون، إلا أن العقود التي يلتزمون بها تنص على العمل 24 ساعة، سبعة أيام في الأسبوع مقابل 600 دولار في اليوم، وهذا يعني أن المتعاقد يتقاضى \$25 في الساعة من دون أي فوائد أو ضمانات بالتوظيف خارج نطاق مدة العقد المبرم. والفائدة الكبرى التي يجنيها الجيش الأمريكي من استخدام المتعاقدين الأمنيين هي أن الجيش في حل من توفير تأمين طويل الأمد على الحياة وعلى الإصابة والإعاقة، والتقاعد بعد الخدمة، والتدريب، والمنافع والمكافآت، والتأمين الصحي. فالاعتماد على المتعهدين إذن يقدم للجيش تكلفة واحدة تدفع مرة واحدة دون أن يصاحبها أي التزامات أخرى قبل أو بعد تنفيذ العقد. وبذلك يكون المتعهدون أفضل مصدر للجنود الذين يستخدمون مرة واحدة ثم يتخلص منهم، وهم مصدر متاح مرتفع الثمن للعضلات والحديد يمكن اللجوء إليه بسهولة حين تستدعي الحاجة، والتخلص منه بعد انقضاء تلك الحاجة.

ومع أن الشركات الأمنية الخاصة ليس لديها أي حافز لتخفيض التكلفة على الحكومة الأمريكية، إلا أن اختصارها بعض الطرق لتخفيف نفقاتها يمكن أن يزيد من معدلات ربحها. فعلى سبيل المثال، في عقد بلاك ووتر الثانوي مع شركة ريجنسي، يمكن أن يوفر استخدام السيارات العادية بدلاً من الناقلات المصفحة ربحاً إضافياً يقارب المليون ونصف المليون دولار لشركة بلاك ووتر، وقد اتفق في عقد بلاك ووتر المبرم في الثامن من آذار/ مارس مع شركة إي أس على أن يتألف فريق الحماية الشخصية من ستة أشخاص يستقلون سيارتين مصفحتين. غير أن الاتفاق الثانوي مع ريجنسي حذف منه شرط السيارات المصفحة، وحذف هذا الشرط كان مطلباً جوهرياً لبلاك ووتر وربما توقف عليه إبرام العقد. وقبل حادثة الفلوجة، ذكرت التقارير أن جون بوتر - وهو جندي

سابق في قوات سيل - طرد من العمل بسبب إشارته إلى خطورة هذا التغيير في شروط العقد. ومع أنه قد كثر الحديث فيما بعد حول هذا القرار في الدعوى القضائية التي رفعها ذوو المتعاقدين الذين لقوا حتفهم في حادثة الفلوجة، إلا أن كل واحد من هؤلاء المتعاقدين قد وقع عقداً مغرقاً في التفاصيل التي صيغت لحماية بلاك ووتر من أي مسؤولية.

ويوضح عقد الاستخدام الذي وضعته بلاك ووتر في ثلاث وعشرين صفحة بالتفصيل عدم مسؤولية بلاك ووتر في حالة تعرض المتعاقد إلى الإصابة بجروح، أو التشويه، أو الأضرار المعنوية الناتجة عن أعمال «الإرهابيين» أو حتى «موظفي الحكومة الأمريكية». وينص العقد على قائمة مثيرة لمصادر الخطر: التعرض لإطلاق النار، الإصابة بعاهة دائمة، الموت بسبب إطلاق النار، السقوط من طائرة عادية أو مروحية، التعرض لنيران القناصة، الألغام، نيران المدفعية، قاذفات الصواريخ، الشاحنات أو السيارات المنفخخة، الزلازل والكوارث الطبيعية، التسمم، العصيان المدني، النشاطات الإرهابية، الاقتتال بالأسلحة الأبيض، المرض، فقدان السمع، فقدان البصر والإصابة في العين، استنشاق المواد الكيميائية والجرثومية أو التعرض لها (سواء كانت بطريق الهواء أو غيره)، الإصابة بجروح نتيجة الشظايا المتطايرة. ويحدد العقد صراحة أن المسؤولية عن التأمين تقع على المتعاقد، والطريق الوحيد الذي يمكن للمتعاقد أن يقاضي فيه الشركة بلاك ووتر هو التأمين بموجب قانون الدفاع الأساس، وربما بعض النجدة من الجيش الأمريكي إذا حوضر المتعاقدون وسط الزحام، إلا أن احتمالات الحصول على مثل هذه المساعدة تبقى بعيدة وغير متوافرة في المناطق المحفوفة بالمخاطر.

كانت بلاك ووتر تتولى القيام بالخدمات التي كانت تقوم بها شركة كونترول ريسكس غروب (سي آر جي)، حيث قررت هذه الأخيرة الانسحاب من عملياتها الأمنية في الثامن عشر من آذار/ مارس، على أن يجري استكمال جدول انسحابها الكامل من العراق بحلول التاسع والعشرين من الشهر. ومدة الثلاثين يوماً المنصوص عليها في عقد بلاك ووتر الأصلي للبدء بتنفيذ العقد كانت سترك شركة إي إس إس دون تغطية أمنية من الثامن والعشرين من آذار/ مارس حتى الثامن من نيسان/ إبريل. ولما كان كل يوم يمضي في انتظار البدء بتنفيذ العقد يعني خسارة في الربح، فقد قامت بلاك ووتر بخفض مدة

التحضيرات اللازمة للبدء بتنفيذ العقد؛ كي تبدأ العمل في الثاني من نيسان/ إبريل. وحين تبين أن شركة إي أس أس ستحتاج إلى فريق حراسة لمرافقة نقل بعض معدات الطهي في الثلاثين من مارس. بذلت إدارة بلاك ووتر قصارى جهدها لإرسال فريق الحراسة في الموعد المبكر، وجرت العادة في الأوضاع التي تنتقل فيها مهمة الحراسة من شركة إلى أخرى أن يمضي الفريق الجديد بضعة أيام في مرافقة الفريق القديم؛ لكي يطلع على التضاريس ومواطن الأخطار التي يمكن أن يواجهها، غير أنه وبسبب الجدول الزمني المضغوط، جرى وضع فريق بلاك ووتر للعمل منذ اليوم الأول، ولم تتح لهم فرصة التعلم والاستفادة من خبرة سي آر جي.

إضافة إلى ذلك، تتطلب إجراءات العمل الصادرة عن وزارة الخارجية إشعاراً لا يقل عن أربع وعشرين ساعة قبل التحرك، وذلك للقيام بتحضيرات متقدمة مثل استطلاع الطريق المزمع استخدامه، والنظر في طريق بديل، ووضع تعليمات للإخلاء، وكتابة تقرير مفصل للمتعاقدين الأمنيين وعادة ما تكون في شكل مستند باور بوينت مرفقة بمنشور وشفرات للاتصال. وما حدث في هذه المرة كان شيئاً مختلفاً. وكبقية الكوارث التي يمكن تجنبها، فإن سلسلة من الأخطاء الصغيرة والكبيرة أفضت إلى القتل العنيف الذي لقيه سكوت هيلفنستون، ومايك تيغو، ويسلي باتالونا، وجيري زوفكو.

يمثل هؤلاء الرجال الأربعة شريحة قياسية لخليط العاملين في بلاك ووتر؛ فأكبرهم سناً وهو ويسلي باتالونا كان يبلغ من العمر 48 عاماً، وله خبرة 20 عاماً في الجيش الأمريكي، وتقاعد برتبة رقيب في قوات الرينجرز، وهو من السكان الأصليين لجزيرة هاواي. وقد كان يعمل حارساً أمنياً في قرية سكنية تدعى (قرية هيلتون ويكولوا) الواقعة في القسم الأكبر من جزر هاواي، حين بدأت الحرب العراقية، وتذكر التقارير أنه كان ينوي البدء في برنامج لمساعدة الشباب ذوي السلوك المنحرف، وكان بحاجة إلى مبالغ كبيرة من المال لسداد أقساط منزل والده المريض؛ كي يحول دون استرداد شركة التمويل العقاري له وبيعه بالمزاد العلني، وهما أمران يحتاجان إلى مبالغ طائلة من المال لم تكن متوافرة لدى ويسلي. وبعد خروجه من الخدمة العسكرية قبل عشر سنوات، شدّ إغراء العودة إلى العمل العسكري ويسلي إلى عالم الشركات الأمنية الخاصة، وبرز

باتالونا ذو الشعر الفضي والجسم الرياضي اللائق فوق أقرانه من المتعاقدين في العراق، ليس بسبب تقدمه في العمر، بل لنزوعه إلى لبس القمصان الهوائية¹ ذات الألوان الزاهية في أثناء الخدمة. وفي الوقت الذي لقي فيه حتفه، كان قد مضى على عمله في العراق مع شركة بلاك ووتر شهران. وكان يعمل قبلها في عقد مع شركة إم بي آر أي في ربيع عام 2003. وفي هذه الشركة تعرّف ويسلي إلى زميله جيركو جيرالد المعروف بلقب (جيري) زوفكو، وهو الأصغر سناً في المجموعة، ويبلغ 32 عاماً من العمر.

ينحدر زوفكو من أصل كرواتي، وهو من مواليد مدينة كليفلاند بولاية أوهايو في الولايات المتحدة، وقد التحق بالجيش عام 1991 وخدم في وحدة الشرطة العسكرية 82- في مدينة فورت براغ، ثم اجتاز بنجاح متطلبات الالتحاق بقوات الرينجرز- ولكنه لم يلتحق بالمعهد. كان زوفكو شاباً بديناً، يبلغ طوله ستة أقدام وثلاث بوصات (192 سم)، ويزن 235 باونداً (106.5 كيلو غرام)، وخدم مع الجيش الأمريكي في كرواتيا، وحين شارفت خدمته على الانتهاء، قرر زوفكو أن يتحوّل إلى مهنة جديدة أكثر متعة من وظيفة الحارس الأمني أو نائب شريف المدينة. وفي نهاية عام 1997، بدأ عمله متعاقداً أمنياً مع شركة دينكوروب في قطر، وتعلم اللغة العربية في أثناء وجوده في الشرق الأوسط، ثم انتقل إلى العمل مع إم بي آر أي في خريف عام 2003 للقيام بتدريب الجيش العراقي في كيركش. ونشأت أواصر صداقة بينه وبين باتالونا، حيث جمعت بينهما المهمة الصعبة في تدريب الجنود العراقيين الذين يفتقرون إلى التنظيم، والمعنويات العالية، والخبرة. وفي شهر تشرين الثاني / نوفمبر، توجه الجنود العراقيون إلى بيوتهم في إجازة لقضاء شهر رمضان مع ذويهم، ولكن عدداً قليلاً منهم عاد إلى الجيش؛ ولعل ذلك كان بسبب خوفهم من القتل على يد المقاومة العراقية، أو بسبب نفورهم من التدريب الشاق والمجهد على يد المتعاقدين. وبدأ باتالونا وزوفكو بالبحث عن فرص عمل جديدة، فعملاً معاً في شركة كوشايز (حيث فصل الاثنان من العمل بعد وقت قصير) ومن ثم انتهى بهما المطاف إلى بلاك ووتر.

1- نسبة إلى جزر «هاواي» وهذه اللفظة العربية الشائعة لهذه الجزيرة تؤدي إلى خلط في اللفظ لا يطابق الطريقة التي تلفظ بها في الإنجليزية، وتلفظ بالإنجليزية بثلاثة مقاطع مع تشديد نبرة الصوت على المقطعين الأوسط والأخير هكذا «هَوَأيي»؛ لأن الكلمة تكتب هكذا (Hawaii).

ضم الفريق الهالك جندياً سابقاً آخر من قوات الرينجر هو مايكل -آر- (رجل الثلج) تيغ، حيث كان رأس الحربة في فوج سوار المئة وستين (وسوار هي اختصار الفوج الجوي للعمليات الخاصة) المتمركز في مدينة فورت براغ بولاية كارولينا الشمالية. أمضى تيغ 12 عاماً في الجيش، وخدم في باناما، وأفغانستان، وهو رب أسرة ينحدر من مدينة كلاركسفيل بولاية تينيسي. وقد تقاعد من وقت قريب، وقرر أن يصبح متقاعداً أمنياً بعد أن وجد صعوبة في تأمين عمل يعيل به زوجته وابنه عدا العمل بوظيفة حارس شخصي بأجر متدن. وبوصفهم جميعاً من الجنود السابقين، فقد نشأت بين باتالونا، وزفكو، وتيغ علاقة قَبْلِيَّة تحتاج إلى مترجم خاص لتفسير مفرداتها، وتكتيكاتها، واصطلاحاتها المختصرة.

أما العنصر الغريب في الفريق فكان سكوت هيلفنستون. حيث سحب من فريقه القديم المكون من عناصر سابقة من قوات سيل، وطلب منه في اللحظة الأخيرة أن يحل محل أحد الذين تعيبوا من عناصر الفريق الذي لقي أفرادهم حتفهم في الفلوجة. أدرك هيلفنستون أن فريقه الجديد يفتقر إلى الترابط بين أعضائه؛ إذ يعرف عن أفراد الرينجرز أنهم يحبون التأزر معاً، وينظرون إلى عناصر قوات سيل بوصفهم صبية منعمين لا يحسنون التصرف في الظروف الصعبة. والآن أصبح بينهم فرد ليس له خبرة في القتال ولكنه يمثل النموذج التقليدي الأمثل في قوات سيل. لقد كان ستيفن «سكوت» هيلفنستون والبالغ من العمر 38 عاماً من أفراد قوات سيل ذوي الشهرة والنجومية؛ إذ عمل مستشاراً عسكرياً في بعض أفلام هالي وود الكبيرة مثل فيلم (فيس أوف) (المواجهة)، ومن بين نجوم هذا الفيلم جون ترافولتا، وفيلم (النينجا الثلاثة). وظهر كذلك على الشاشة حيث مثل دور مدرب لقوات سيل في فيلم ريدلي سكوت 1997 جي أي جين. وكان سعيه إلى الشهرة إضافة إلى مظهره الحسن سبباً في ظهوره نجماً في برنامج مارك برينت للدراما الواقعية المرتجلة واسمه مهمة حربية، وهي لعبة صراع بقاء في مواجهة جنود سابقين ورجال شرطة. وفي برنامج رجل في مقابل وحش، حيث سابق القردة، وكان وجهه مألوفاً لأي شخص يشاهد برامج التلفاز التي تبث بعد منتصف الليل، حيث كان يعمل مروجاً لمعدات التمارين الرياضية، كما أنه أنتج سلسلة من أفلام التمارين الرياضية على غرار

تمارين قوات سيل. وكانت أبرز عوامل نجاحه في البيع، شعره الأشقر، ومنظره الحسن، وابتسامته العريضة، وعضلات ساعديه المفتولة. وكان العاملون الذين خدموا في الشركة مدة طويلة يستغربون من عدم ذهاب «سكوتي بود» إلى فريق الحرس الشخصي لبول بريمر، أو كما يسمى في أوساط المتعاقدين «فريق الفتية الوسيمين».

وبحلول عام 2001، كان سكوت يعاني أزمة مالية خانقة، حيث توقفت مهنته في التمثيل، كما أن أشرطة اللياقة والتمارين الرياضية التي أنتجها لم تتج دخلاً يكفي لتغطية نفقات الدعاية والإعلان التي أنفقت عليها؛ فاضطر سكوت إلى إشهار إفلاسه وبيع منزله في كاليفورنية والعمل بوظيفة حارس أمني في تجمع للمباني. ومع دخل سنوي يقل عن 15 ألف دولار في السنة، وإعالة اثنين من الأولاد بالإضافة إلى زوجته، كان وضعه الشخصي في حالة يرثى لها؛ فقرر سكوت أن يتقدم بطلب للعمل لدى بلاك ووتر، فقبل طلبه على الرغم من السياسة المتبعة في بلاك ووتر بعدم توظيف الأشخاص الذين يعانون من صعوبات مالية، وقد قام مدير الشركة غاري جاكسون، وهو نفسه ضابط سابق في قوات سيل، بالالتفاف على أنظمة وتعليمات الشركة في سبيل قبول طلب سكوت، وهذا أمر غير مستغرب. فالجنود السابقون يدركون جيداً صعوبة الحياة خارج الجيش، كما أن هناك شعوراً بالاعتزاز توفره بلاك ووتر في الفرصة الثانية التي يُسَمَّحُ فيها للجندي السابق بالعودة إلى الإثارة والمغامرة، والعمل مع الرفاق السابقين، وخدمة المجتمع. أما حقيقة أن المتعاقدين يقدمون على العمل في ظروف محفوفة بالمخاطر لأسباب مالية فلا تجري مناقشتها، ولكنها تقدم حافزاً ظاهراً للمتقدم للعمل لإلقاء نظرة سريعة على العقد والتوقيع فوق الخط المنقط. وها هو سكوت يوشك على تحقيق الشهرة التي طالما كان ينشدها، ولكنها هذه المرة في فيلم واقعي درامي مرتجل، جرى بثه على شاشات التلفاز حول العالم.

التحق هيلفنستون بالعمل في شركة بلاك ووتر مطلع آذار/ مارس من عام 2004، وتلقى تدريباته في المركز الرئيس للشركة في موبوك في نورث كارولينا، ثم أرسل إلى الكويت ضمن فريق الأمن والحماية في عقد شركة إي أس أس، وكانت فاجعة أسرة هيلفنستون هي الأشد؛ لأن سكوت لم يكن مفترضاً أن يكون في المكان الذي لقي فيه منيته.

كان من المقرر أن يكون تي-بوي الجندي السابق في قوات المارينز من ولاية كاليفورنيا والبالغ من العمر 37 عاماً، ضمن فريق أربعة الرجال الذين لقوا حتفهم في الفلوجة. ولكن فاته اللحاق بالفريق بسبب تأخر طائرته المتوجهة إلى الكويت. ويقول تي بوي: «في الوقت الذي توجهت فيه إلى الفندق، كان فريق «نوفمبر - 1» في طريقه متوجهاً إلى بغداد؛ فحلَّ سكوت هيلفنستون محلي بسبب تأخري، وقتل بعدها بيومين، وقد أبدى عدد من الأشخاص امتعاضهم مني لبعض الوقت بعد ذلك الحادث. إنهم لم يفهموا ما حدث لرحلتي الجوية، وكل ما يعرفونه هو أن صديقاً عزيزاً على قلوبهم قتل بدلاً مني حين حل مكاني في الفريق الذي لقي جميع أفرادَه الموت.

ويلاحق كابوس مرعب تي بوي حين يستحضر حادثة القتل المروعة في ذهنه ممزوجة ببعض الشعور بالذنب: «ظن بعض الأشخاص الذين يعملون معي أنني لم أعد صالحاً للعمل هنا بسبب عدم الاستقرار النفسي، وحاولوا فصلني من العمل. ولا أحد يعرف كيفية التعامل مع الموت إلا بعد أن يقع. وها أنا الآن، بعد سنة من الحادثة، مازلت في العراق، وأقوم بما أعتقد أنه العمل الصحيح».

كان المدرب الذي درب سكوت في مقر بلاك ووتر في مويوك هو جستن (شرك) ماكوان، وهو جندي سابق من قوات المارينز، وكان ترقى من منصب مدرب إلى منصب مدير مشروع تنفيذ عقد إي أس أس في الكويت. وفي أثناء مدة التدريب شجرت مشاحنة وخصومة بين سكوت وجستن واستمرت هذه العداوة بينهما في الكويت. وحين تأخرت طائرة تي-بوي وتغييب عن مواعده، اختار «شرك» أن يضع سكوت محل تي-بوي في فريق «نوفمبر - 1» المتوجه إلى العراق. وبينما كان سكوت يتناول عشاءه في وقت متأخر من الليل في الثامن والعشرين من الشهر، جاء شرك إليه، وطلب منه أن يحزم متاعه ويستعد للتوجه إلى بغداد في الساعة الخامسة صباحاً. في البداية حاول سكوت التملص من هذه المهمة مدعياً بأن صحته معتلة. ومع أن متاعداً آخر تطوع للذهاب مكانه، إلا أن شرك جاء إلى غرفة سكوت وبدأ يوبخه ناعثاً إياه بالجبان والخائر، ثم صادر سلاحه صارخاً في وجهه بأنه مفصول من العمل. وكانت تلك المواجهة كافية لدفع سكوت إلى إرسال رسالة إلكترونية إلى المقر الرئيس لبلاك ووتر، وصف فيه ما حدث وطلب منهم التدخل. وحين

جاء الصبح ولما يتلق سكوت أي رد من المقر الرئيس للشركة على رسالته الإلكترونية، حزم أمتعته وتوجه إلى بغداد.

كانت مهمة فريق «نوفمبر - 1» هي مرافقة قافلة من الشاحنات التابعة لشركة إي أس تحمل معدات وأدوات طبخ من تاجي إلى معسكر ريجوي، وكان عليهم بصفتهم حراساً مرافقين أن يراقبوا أي حركة مريبة أو أي شيء غريب وغير طبيعي في طريق القافلة، وردع أي هجوم على القافلة، وإذا حدث اشتباك، فعليهم أن يشغلوا العدو حتى تتمكن القافلة من الانفلات. كانت أسلحتهم مكونة من بنادق إم - 4 ومسدسات غلوك، وهي أسلحة اعتادوا استخدامها في الجيش، غير أنهم لم يكونوا على معرفة بتضاريس المكان، ولم تكن لديهم فكرة عن هو العدو، ولا عن مكانه. وهذه معلومات لا يمكن أن تتأتى إلا بالخبرة والتجربة. لقد كان فريق «نوفمبر - 1» فريق حراسة عادي مؤلف من رجال ذوي خبرة وما يكفي من المهارة لإخراجهم من أي ورطة ولكنهم لم يسبق لهم أن عملوا معاً، وكانوا يفتقرون إلى التلاحم فيما بينهم. إضافة إلى ذلك، كانوا يعانون من نقص العدد. ومع أنه كان باستطاعة بلاك ووتر أن ترسل فريقاً مكوناً من ستة رجال جرياً مع بنود العقد المبرم مع إي أس أس، الذي يشترط أن يتألف فريق الحراسة من ستة أشخاص على الأقل، إلا أن المدير في بغداد توم باول قرر أن يرسل في ذلك اليوم فريق حراسة مكوناً من أربعة رجال فقط.

ومن بين جميع الخيارات التي مارستها إدارة بلاك ووتر وثارث حولها الشكوك، كان قرار إرسال فريق حراسة مكون من أربعة أشخاص هو أكثر ما أزعج تي-بوي. «إن مسألة أربعة رجال لا تزال لغزاً محيراً لي حتى هذا الوقت: كانت كل الفرق مكونة من ستة رجال، وخفض هذا العدد إلى أربعة هو قرار اتخذه توم باول، وإرسال فريق إلى العمل بهذا العدد حدث مرتين في أثناء عملي مع بلاك ووتر. وكان فريق «نوفمبر - 1» هو المرة الثانية. في المرة الأولى كُلف فريقتي بمهمة التوجه إلى الحدود الأردنية لاستقبال واحد أو أكثر من الشخصيات المهمة ومرافقتهم إلى بغداد... تأخرت أنا وعامل آخر بأمر من توم باول فيما توجه بقية الفريق لإتمام المهمة. قيل لنا إننا سنساعد توم في التحرك إلى مكان ما، وأنه كان بحاجة إلى بعض الأشخاص لمساعدته. وظننت أن شخصين آخرين

من الفريق الآخر كانوا سيقدمون المساعدة، ولكن ذلك لم يحدث... واليوم يدرك الجميع أنه كان من الجنون أن يقترح أحد القيام بتلك الرحلة في ظل تلك الظروف»

تقضي أدنى متطلبات الفريق الأمني الذي يرافق القوافل أن يكون في كل سيارة مرافقة سائق وقناص في المقعد الأمامي وقناص في المقعد الخلفي للحفاظ على مسافة بين القافلة وبين السيارات التي تسير خلفها وللتعامل مع أي شخص يحاول تتبع القافلة. وجعل رجلين اثنين في السيارة الواحدة يعني أن السائق عليه أن يراقب الجهة الواقعة أمامه وعن يمينه والجانب الخلفي إضافة إلى قيادة السيارة. وحتى لو كان السائق يملك عيناً ثاقبة وسرعة في الرد، إلا أن بندقيته لن تكون جاهزة، بل تكون موضوعة في حجره، ومسدسه على جنبه. وعلى القناص الجالس إلى جانبه أن يراقب الجانب الأيمن كاملاً إضافة إلى المؤخرة. ولكن لا يمكنه التعامل مع خطر إطلاق النار القادم من المقدمة. وهذا الوضع يجعل السيارة مكشوفة لكمين يأتي من المؤخرة على شكل هجوم كروفر ولإطلاق نيران مستمر إذا كان على المتعاقدين الإسراع في سيرهم. إن وجود سيارة أخرى وبداخلها اثنان من الرجال ليس له أثر في مضاعفة فاعلية القوة ولكنه يوفر سيارة للفرار أو للوقوف المزدوج بجانب السيارة الأولى لإطلاق النيران إذا ما تعرضت إحدى السيارات لإطلاق نارٍ طرفٍ معادٍ.

وفي مخالفة أخرى لمواد العقد بين بلاك ووتر وإي أس أس. وكما ذكرنا آنفاً، فإن فريق «نوفمبر - 1» لم يكن يستخدم سيارات مصفحة، وهناك جدل حول أفضلية استخدام السيارات المصفحة على السيارات غير المصفحة. والحقيقة أن ثمة إيجابيات وسلبيات لكل نوع؛ فالسيارات غير المصفحة تمكّن الفريق من إطلاق النار من النافذة المفتوحة وملاحقة السيارات المهاجمة، كما أنها توفر درجة عالية من الوعي بما يدور خارج السيارة؛ وذلك لسهولة سماع الأصوات القادمة من الخارج. أما السيارات المصفحة فيتطلب الأمر فتح الباب جزئياً لسماع ما يجري في الخارج؛ لأن النوافذ ذات الزجاج المقاوم للرصاص تكون محكمة الغلق، ولا يسمع الصوت من ورائها. وتستخدم بلاك ووتر سيارات باجيرو بعد أن قامت على عجل بإضافة صفيحة حديدية على الواجهة الخلفية لتوفير الحماية للقناص الجالس في المقعد الخلفي. غير أن هذا الإجراء لم يكن له أي نفع؛ لأن القناص في فريق «نوفمبر - 1» اختار الجلوس في المقعد الأمامي.

وتذكر التقارير أن بلاك ووتر كانت تريد أن تبرهن لشركة إي أس أس أنها قادرة على مواجهة التحدي في هذا الجدول الزمني المضغوط، ويبدو أن الإدارة كانت تحت ضغط مكثف لإرسال الرجال. وقد أدرك تي-بوي بعد وصوله الكويت حجم المخاطر التي قبلت بها بلاك ووتر في سبيل جعل الفريق جاهزاً للعمل وتشغيله قبل الوقت المحدد. وكان الافتقار إلى الموارد والرجال هو القضية التي يدور حولها أكثر النقاش. لقد كان بعض أعضاء الفريق أكثر خبرة من بعضهم الآخر، إلا أن الشعور العام لدى المتعاقدين هو أن هذا العقد سيكون مآله الهلكة... وبعد ما تبين لي الآن، فإنني لن أقبل بالعمل في مثل هذه الظروف مرة أخرى. لم يكن لدينا القيادة الصحيحة ولا المعدات الصحيحة لإنجاز المهمة. كنا نتحرك بسرعة، ولم يسبق لأكثرنا أن مر بظرف كهذا. كان التدريب مختصراً في ذلك الوقت، وكنا نستخدم أسلحة شبه آلية، ولم يكن لدينا بنادق آلية. على خلاف ما ينص عليه العقد. وكذلك كانت سيارتنا غير مصفحة بخلاف ما ينص عليه العقد. لم يكن هناك ما يكفي من الترابط بين أعضاء الفريق بما يسمح بوضعهم في مناطق معادية وإنجاز المهمة بسرعة. ويبدو لي أن ما كان يشغل بال القائمين على الشركة هو الجدول الزمني، ونحن جميعاً نعلم ما يعنيه ذلك: إنه يعني الدولارات. كان الاستعجال، الاستعجال، الاستعجال، هو سيد الموقف منذ البداية. لم يكن أمامنا فرصة حقيقية للنجاح».

بدأت أول قوة أمنية مرافقة لشركة إي أس أس عملها قبل أيام من موعد البدء بتنفيذ عقد بلاك ووتر، إذ كان باول يرسل قوات حراسة رمزية لا يمكنها حماية نفسها، فكيف بحماية الشاحنات الكبيرة التي أبرم العقد لحمايتها؟ أي إنه كان يوفر حماية اسمية وليست فعلية، وقرر باول إرسال فرق ناقصة العدد والعتاد ليس إلى «منطقة» محفوفة بالمخاطر بل إلى «عمق» أكثر المناطق خطراً في العراق، ذلك أن المناطق المحيطة بالفلوجة كانت في ذلك الوقت مشهورة بأنها قاعدة انطلاق المقاومة المعادية للوجود الأمريكي في العراق.

في ربيع عام 2004، وبعد عام واحد من الوجود الأمريكي في العراق، كان العنف يتطور إلى درجة الفوضى مع تزايد عمليات الخطف والهجمات المسلحة. وانتشرت مشاعر الغضب لدى سكان المثلث السني تحديداً بعدما تبين أن الولايات المتحدة لم تستطع

التخفيف من موجة العنف، بل ظهرت من الناحية الفعلية أنها تزيد من حنق المقاومة بما تصدره من «أوامر» تعزز من شعور العراقيين بأنهم يعيشون تحت احتلال عسكري أمريكي. وبدأت النظرة إلى الأمريكيين بوصفهم قوة اضطهاد تحل محل النظرة التي تراهم قوة تحرير.

وكانت الفلوجة، إلى جانب الرمادي وغيرها من مدن المثلث السني، قلاعاً حصينة للمقاومة العراقية الآخذة بالتوسع بسرعة، وكانت عصابات الخطف، والمقاومة، والبعثيين السابقين يستخدمون الفلوجة قاعدة انطلاق لعملياتهم. وفي مطلع شهر آذار/ مارس، اتخذت قوات المارينز من فرقة المظليين 82 مواقع لها حول ضواحي المدينة، غير أن سياستهم كانت تقضي بعدم الدخول في معارك قتالية داخل المناطق السكانية وسط الفلوجة. وعمدت بدلاً من ذلك إلى توجيه تركيزها على قطع الطرق الخارجية على المقاومة والقيام بعمليات استطلاع بأعداد كبيرة. وفي التاسع والعشرين من الشهر نفسه، وقعت حادثة قام فيها الجنود الأمريكيون بإطلاق النار على مجموعة من المتظاهرين، وهي الحادثة التي يشير إليها قادة المدينة بوصفها الشرارة التي كانت وراء الاحتفال الدموي الذي أبداه سكان البلدة بعد موت المتعاقدين. حيث خرج سكان الفلوجة إلى الشوارع احتجاجاً على احتلال الجيش الأمريكي أمام مبنى يعود لإحدى مدارس المدينة، ولكن الجنود يقولون: إنه كان بين المتظاهرين من يحمل السلاح. ولقي سبعة عشر من سكان الفلوجة حتفهم في تلك الحادثة.

لاحظ سكان الفلوجة إلى جانب الوجود العسكري الأمريكي، أن ثمة مجموعات من رجال أجانب تبدو عليهم ملامح الجنود ولكنهم بملابس مدنية يروحون ويجيئون في المنطقة ويقومون بأعمال تدعم الاحتلال الأمريكي. ويمكن تحديدهم بسهولة من نظاراتهم الشمسية، وشعرهم القصير، وملابس السفاري التي يلبسونها، وأكثر من ذلك من أسلحتهم. حيث كانوا ينتقلون من القواعد العسكرية إلى الفنادق في العراق مستقلين حافلات حنطية اللون أو سيارات بيضاء رباعية الدفع، شاهرين سلاحهم بأسلوب استقزازي للمحافظة على مسافة طويلة بين قوافلهم وبين العراقيين العاديين، وكانت الفكرة الشائعة في الشارع العراقي أن هؤلاء هم عملاء وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية وأعاونهم من المرتزقة،

ولم يكن لدى سكان الفلوجة أدنى اهتمام بالتمييز الدقيق بين العسكريين الحقيقيين وبين المتعاقدين العسكريين من المدنيين؛ فهم كلهم العدو.

وفي التاسع والعشرين من آذار/ مارس، مكث فريق الأول من «نوفمبر - 1» في فندق قديم في بغداد كانت بلاك ووتر تتخذة مقراً رئيساً لها في العراق. وفي اليوم اللاحق، كان مقرراً أن يتجهوا إلى مدينة تاجي شمالي بغداد، لملاقة ثلاث شاحنات فارغة تابعة لشركة إي أس أس ومرافقتها إلى معسكر ريجوي، إلى الغرب من بغداد والفلوجة، لنقل بعض أدوات الطهي. ويعتقد تي-بوي أن الرجال كانوا يعلمون أنهم غير مستعدين تمام الاستعداد لهذه المهمة: «إنني أعلم أن ويسلي، وجيري لم تكن لديهما رغبة في تنفيذ هذه المهمة، وقد سمعت أنهما أبديا معارضتهما لهذه المهمة لتوم باول، وأعتقد أن ذلك حدث في الليلة السابقة، غير أنهما - طبعاً - استمرا في العمل ونفذا ما طلب منهما».

عمل باتالونا وزوفكوي المنطقة قبل تلك الحادثة، غير أن هيلفنستون وتيغ لم يسبق أن وطئت قدماهما تلك المنطقة. ويبدو أن الرجال الأربعة كانوا يجهلون طريقة سير الأمور، ويذكر أحد المصادر في بلاك ووتر أنهم في الليلة السابقة للحادثة، سأل الرجال موظفي الاستقبال في الفندق عن كيفية الوصول إلى المنطقة التي يقصدونها. وقد ثار جدل واسع في الرأي العام الأمريكي حول التقارير التي ذكرت بأن المتعاقدين قد دخلوا إلى منطقة غير مألوقة لهم ومحفوظة بالمخاطر إلى أبعد حد دون أن يكون معهم خريطة ترشدتهم. وفي حين يعلم تي-بوي أن الإدارة في بلاك ووتر لم تعط الفريق خريطة، إلا أنه يجد من الصعب التصديق بأن الرجال بدؤوا رحلتهم من دون أن يكون معهم خريطة للطريق للاسترشاد بها من مصدر آخر.

«نقلت التقارير أنه لم يكن معهم أي خريطة للمنطقة، ولست متيقناً من صحة هذا القول؛ أي إن كانوا قد حصلوا على خرائط للفلوجة من مصدر آخر. إنني أعلم أن بلاك ووتر لم تعطهم أي خرائط؛ لأنه قيل لنا في السابق: إنهم لا يملكون خرائط لتلك المنطقة. ولم يكن قولهم هذا صحيحاً، بالطبع، لأنني أنا شخصياً وجدت عدة خرائط لمدينة الفلوجة في اليوم الذي وقعت فيه الحادثة- ولكن قبل أن نعلم ما كان يحدث- من بين عدد كبير من خرائط العراق والمنطقة بكاملها. وقد كلفت في ذلك الصباح بفرز تلك الخرائط، ومع علمي مما قيل لنا بأنهم لا يملكون خرائط لمدينة الفلوجة، فقد دهشت

حين وجدت تلك الخرائط». ولم يفكر تي-بوي بتلك الخرائط إلى حين قرأ الاتهامات التي وجهتها أسر المتعاقدين الذين قتلوا في تلك الحادثة.

وصل فريق الأول من «نوفمبر - 1» إلى تاجي لملاقة شاحنات إي أس أس ولكنهم ضلوا طريقهم حين كانوا يحاولون العثور على طريق يوصلهم إلى معسكر ريجوي. وبحسب ما جاء في الدعوى التي رفعها ذوو المتعاقدين القتلى على بلاك ووتر، فإن القافلة توقفت في معسكر الفلوجة، وهي قاعدة عسكرية على بعد خمسة كيلومترات إلى الشرق من الفلوجة، حيث أمضوا ليلتهم هناك، مع أن بعض التقارير غير الموثقة تذكر أنهم ذهبوا إلى أحد الفنادق. غير أن المعروف على وجه مؤكد هو أنهم انطلقوا في صباح اليوم اللاحق الموافق 31 من آذار/ مارس متجهين غرباً على الطريق يأخذهم مباشرة إلى قلب المناطق المعادية في الفلوجة. حيث استقل باتالونا وزوفكو سيارة الباجيرو الزرقاء في مقدمة القافلة، في حين استقل هيلفنستون وتيغ سيارة الباجيرو الحمراء في مؤخرة القافلة المكونة من خمس مركبات. ولو كان فريق الحراسة يدرك فداحة الخطر المُقَدِّم عليه في وسط الفلوجة؛ لسلخوا الطريق المباشر الدائري حول الفلوجة وإن كان سيأخذ منهم ساعتين إضافيتين في القيادة. وعلى كل حال، فهم إما أنهم كانوا يجهلون الخطر، أو أنهم كانوا يظنون أن باستطاعتهم اجتيازه.

ومن عادة القوافل أن تتجنب المرور بالمناطق السكانية المأهولة ما أمكن، ولا سيما المناطق المعادية كالفلوجة؛ لأن الشوارع المحاطة بالبنائيات هي أفضل غطاء للقناصة، كما أنه يسهل سد المنافذ التي يمكن الفرار منها إذا وقعت القافلة في كمين. وتقول إحدى النظريات التي تفسر ما حدث: إن القافلة كانت تنوي الانضمام إلى فريق من قوات الدفاع المدني العراقي الأمريكي التدريب عند المدخل الشرقي للمدينة وذلك لمرافقتهم في اجتياز وسط المدينة وتعزيز القوة النارية للقافلة فيما لو تعرضت للهجوم. غير أن هذه الخطوة تتطلب ترتيباً من الليلة السابقة، ولا يوجد دليل على أن المارينز في معسكر الفلوجة، أو أن المتعاقدين أنفسهم قد تقدموا بهذا الطلب. ويرى تحقيق داخلي خاص غير منشور قامت به بلاك ووتر بعد الحادثة أن المتعاقدين غادروا معسكر الفلوجة سالكين الطريق السريع 10 حتى وصلوا إلى المنظر القبيح للمنطقة الصناعية الشرقية في نهاية الفلوجة، حيث توقفوا عند نقطة تفتيش تابعة لقوات الدفاع المدني العراقية نحو الساعة التاسعة

صباحاً بحسب ما جاء على لسان أحد كبار المسؤولين في شركة بلاك ووتر، ويدعم هذه النظرية اتصال هاتفي أجراه المتعاقدون مع المقر الرئيس لبلاك ووتر في بغداد وكذلك شهادة شهود عيان.

وعلى ما يبدو، فإن حافظتين تابعتين لقوات الدفاع المدني العراقي مملوءتين بأفراد تابعين لتلك القوات يلبسون الزي الموحد الحنطي عرضوا عليهما مرافقتهم إلى وجهتهم المقصودة، فتوجه الجميع في طريق بديل عبر الازدحام المروري في الفلوجة. وبحسب ما يقوله شرطي عراقي كان يعمل على التقاطع الرئيس المؤدي إلى وسط المدينة في ذلك الصباح، أن فريق بلاك ووتر توقف لسؤاله عن إرشادات الطريق إلى معسكر ريجوي، وهو ما يوحي بأنهم ربما كانوا غير واثقين بنوايا قوات الدفاع المدني العراقي المرافقة لهم. ثم تابعت القافلة مسيرها نحو المدينة ثم توقفت عشر دقائق بعد أن قطعت ثلاث مئة ياردة من التقاطع بسبب الازدحام المروري. وفي نحو الساعة التاسعة والنصف صباحاً، بدأت السيارات بالتحرك، وواصلت القافلة المكونة من ثلاث شاحنات مرسيدس حمراء، وسيارتي الباجيرو التابعتين لشركة بلاك ووتر، وشاحنتين تابعتين لقوات الدفاع المدني العراقي، حركتها ببطء. وكانت الشاحنتان العراقيتان تتقدمان القافلة وخلفهما باتالونا وزوفكو، في حين كان تتيغ هيلفنستون في حماية المؤخرة.

وبعد ميل ونصف الميل داخل الفلوجة، وفي الوقت الذي كانوا يسيرون فيه على الطريق السريع - 10 صوب قلب المدينة، توقفت الشاحنتان العراقيتان فجأة. ونتيجة لذلك توقفت القافلة بكاملها. حينئذ، ومن غير تأخير، برزت من السوق المجاور مجموعة من الشبان المثلثين بالكوفيات العراقية يحملون بنادق إي كي - 47 وبدؤوا من فورهم بإطلاق النار باتجاه المتعاقدين من الخلف. ومن تلك المسافة القريبة، اخترقت الرصاصات من حجم 7.62 ملم الزجاج وحديد السيارات الرقيق لتستقر في أجساد المتعاقدين في السيارة الخلفية. ولم يملك هيلفنستون وتتيغ أي فرصة للرد.

استدار سائقو شاحنات إي أس أس الذين أصابهم الذعر من أصوات إطلاق النيران حول سيارة الباجيرو التي كانت في المقدمة ولاذت الشاحنتان العراقيتان بالفرار. وعلى إثر سماع باتالونا وزوفكو صوت إطلاق النار استدارا بالسيارة إلى الخط المقابل لأخذ

موقع للرد والتعامل مع الموقف. غير أنّ وابلأ من رصاص المقاومة اخترق جسديهما قبل أن يسددا سلاحهما. وبعد إصابتها بالرصاص من مدى قريب، تسارعت السيارة واصطدمت بسيارة تويوتا بيضاء كانت تسير بسرعة عالية، ثم توقفت بعد أن التحمت بمقدمة السيارة المصدومة. لقي الرجلان مصرعهما بعد أن اخترق الرصاص رأسيهما وأطرافهما، وبدأ مصور عراقي بتصوير المشهد بعد أن حقق الكمين أهدافه، موثقاً مشهداً من أفظع المشاهد التي سجلت في الحرب العراقية، وبثت أجزاء من هذا الفيلم عبر محطات التلفزة العالمية دون توقف على مدى عدة أيام.

ويمكن مشاهدة زوفكو في الفيلم الذي التقطته كاميرا الفيديو اليدوية وهو جالس في المقعد المجاور للسائق، فاغراً فاه، ميتاً بلا حراك. في حين كان باتالونا مستلقياً بجثته الهامدة في حضن صديقه، مضرجاً بالدماء التي أضفت على قميصه الهاوائي ذي اللونين الأبيض والأحمر مزيداً من الاحمرار. وفي خلفية الفيلم تعالت هتافات «الله أكبر» فيما راحت عناصر المقاومة تنزع الأسلحة عن جثث المتعاقدين الدافئة، وركز مصوّر الفيلم على البطاقات الشخصية الصادرة عن وزارة الدفاع الأمريكية بوصفها «دليلاً» على أن المجاهدين قد قتلوا للتو عناصر تابعة «لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية».

ومع سماع أصوات البنادق الرشاشة وهتافات رجال المقاومة في وسط المدينة، انتشر خبر الهجوم في شوارع المدينة انتشار النار في الهشيم، وبدأ السكان المحليون بالندفاع إلى مكان الحادث وقاموا بإضرام النيران في مركبات القافلة. وازدادت أعداد المحتشدين حول المركبات المحترقة وهم يرقصون ويهتفون، ويصرخون، احتفالاً بهذا النصر المؤزر على المحتل الأمريكي العظيم. وبعد أن خمدت نيران المركبات المحترقة، قامت مجموعة من المتظاهرين بإخراج الجثث المحترقة من الهيكل الملتهب لسيارتي الباجيرو. وقام الرجال بضرب الجثث المتفحمة بالمسحاة، وداسها الأطفال بنعالهم، وراح أحد الأشخاص يركل رأس إحدى الجثث حتى انفصل الرأس عن بقية الجسد المحترق، وقام آخر بربط إحدى الأرجل المنفصلة بحبل وربط الطرف الآخر بحجر وألقى بها فوق عمود الكهرباء وبقية عالقة فوق الأسلاك. ووجهت الحشود نشوتها نحو الكاميرا، مرددين شعارات معادية للأمريكيين، ومؤيدة للمجاهدين، وهم يرقصون فوق السيارات المدمرة.

وقام أحد الأشخاص بربط جثتين بمؤخرة سيارته وأخذ يجرحهما في الشارع الرئيس المسمى شارع الشيخ أحمد ياسين تكريماً للقائد الروحي لحركة حماس الذي اغتيل على يد الإسرائيليين. ويمر الدرب الذي سلكوه بمركز شرطة المدينة، وبدأ أن ضباط أمن المدينة ليس لديهم مصلحة في الوقوف في وجه الجموع الهائجة. وتوجه أحد المصورين إلى ضابط شرطة ليسأله عن رأيه بما يحدث في الوقت الذي كانت فيه جثت القتلى تنتهك، وصرح الضابط بكل وضوح أن ما حدث ليس من شأنهم. وواضح أنهم أدركوا العقاب السريع والوحشي الذي سيحل بمن يساعد الأمريكيين.

توقفت السيارة التي كانت تجر الجثث عندما وصلت إلى نهر الفرات، حيث قامت مجموعة من الأشخاص بتعليق ما تبقى من جثث المتعاقدين على دعائم الجسر. وقام أحدهم بتعليق لافتة على الجسر تقول: إن الفلوجة هي مقبرة الأمريكيين. وبقيت الجثث متدلية من الجسر عدة ساعات في الوقت الذي كانت السيارات تروح وتجيء فوق الجسر في أشع وأفظع مشهد للموت. وقامت عناصر المقاومة بإنتاج شريط فيديو للحادثة ونشره عبر الإنترنت. وفي هذا الفيلم الذي أعلنت المقاومة فيه عن المسؤولية عن الحادث، عرضت الوثائق التي جرى الاستيلاء عليها وكذلك جثث المتعاقدين، وظهر أحد عناصر المقاومة ليروي وقائع العملية. ظهر هذا الشخص الذي كان يغطي وجهه كله بوشاح أسود ولم يظهر منه سوى عينيه السوداوين وخلفه ستارة سوداء، وراح يسرد رواية المقاومة للحادثة. استهل الرجل حديثه كالعادة بتلاوة آيات قرآنية¹:

1- هكذا جاءت العبارات المنصصة في الكتاب مع ملاحظة أن ما ورد في متن الكتاب ليس من القرآن. وهذا هو النص الإنجليزي كما ورد في الكتاب:

The man begins with a typical Koranic tribute...

Thanks to Allah and praise to the messenger who is

Mohammed. We do not kill them, they kill themselves. If you do not do it, Allah will do it for you...

ولعل المؤلف قصد قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الآية 17 من سورة الأنفال] ولعل المقصود بالجزء الأخير الآية 38 من سورة محمد ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾.

«الشكر لله والحمد للرسول الذي هو محمد، إننا لا نقتلهم، ولكنهم يقتلون أنفسهم، وإذا لم تفعلوه، فإن الله سيتولى ذلك عنكم.

«في صباح يوم الأربعاء الموافق للحادي والثلاثين من آذار/ مارس، وبعد الصلاة، جاء أحد مخبري المجاهدين ومعه معلومات، وأخبر قائدنا بأن مجموعة من عملاء وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية ستعبر الفلوجة من الشارع الرئيس إلى الحبانية [بلدة إلى الغرب من الفلوجة] لعقد اجتماع خاص. فطلب منّا القائد أن نكون مستعدين لقتل هؤلاء الناس. وبعد أن جهزنا أنفسنا وأسلحتنا، انطلقنا في تمام الساعة السادسة صباحاً وبدأنا نرصد الطريق من الجسر إلى الحبانية وقمنا بذلك ثلاث مرات.

«وبعد ذلك اختار القائد تقاطع المدينة لتنفيذ الهجوم. وقد اختار هذا التقاطع؛ لأنه مزدحم بالسيارات مما يمنعهم من الفرار، وحدد لنا القائد مواقعنا، وبقيت أنا والقائد ومجاهد آخر في ذلك الموقع معاً.

«بعد ذلك، توجهت إلى إحدى المقاهي لشرب الشاي، فجلست في المقهى وشربت الشاي، وحين فرغت من شرب الشاي كانت الساعة التاسعة والربع صباحاً، ثم جاء القائد ومعه مساعده وجلسوا معي. ثم قدم لنا القائد تعليماته الأخيرة، وطلب منّا أن نتحرى السيارات التي يستقلونها؛ لأنهم عادة يستخدمون سيارات مدنية، وأنهم غير مصحوبين بحرس شخصي، وأنهم يلبسون ملابس مدنية - وهم يفعلون ذلك كيلا يقعوا أسرى بيد المجاهدين؛ لأن كل أمريكي يدخل الفلوجة سيكون مصيره القتل.

«وتحدثت إلى مساعد القائد، وقال لي: علينا أن نستكشف الشارع مرة أخرى في الساعة الحادية عشرة صباحاً لنرى إن كانوا قادمين أم لا، ثم تحدثنا مرة أخرى مع عيوننا لنستوثق منهم إن كان الفريق في طريقه أم لا. فقالوا لنا: إن الهدف سيكون في الفلوجة في غضون ساعة أو ساعتين. قيل لنا في الأصل إنه في الساعة العاشرة صباحاً، غير أن استكشافنا الأول كان في الساعة الثامنة صباحاً، ولكنهم وصلوا فعلياً في الساعة التاسعة وخمس وأربعين دقيقة صباحاً، وشاهدتهم صاحب المقهى وقال: «لم جاء هؤلاء الناس إلى أرضنا؟ سيقتلون على يد المجاهدين!».

«ثم طلب القائد من كل واحد أن يأخذ موقعه؛ لأن الوقت قد حان، ثم طلب منّا أن نحرك سياراتنا إلى الموقع، وعلينا أن نكون مستعدين لاستخدام سلاحنا وأسر هؤلاء الأفراد. بدأنا بالتحرك، وأخذ كل واحد منا موقعه، وقرر القائد مهاجمة السيارة الأخيرة، وأسر السيارة الأولى، ثم قمنا بمهاجمة السيارة الأخيرة وحاولت السيارة الأولى الفرار بالانتفاف إلى المسرب الآخر من الشارع فلم يتمكنوا من الهرب وأمسكنا بهم، ثم قتلنا الأشخاص الموجودين في السيارة الأولى. وبحمد الله انتصرنا عليهم وأخذنا أسلحتهم ومتاعهم.

«ثم طلب إلينا القائد أن نترك بعض الأسلحة، ثم جاء أهلنا في الفلوجة وأحرقوا السيارات وأخبرونا بأن الله نصرنا، وقالوا لنا إنهم أحرقوا كل شيء في السيارات، وقد شاهدتم النتيجة في الأخبار. لقد نصر الله أهل الفلوجة نصراً عظيماً، لقد نصرنا الله ونصر المجاهدين.

«وسواصل الجهاد».

علمت قوات المارينز بالهجوم من فوكس نيوز. وبعد ساعات، لم تجرّ قوات المارينز على دخول الفلوجة، ولكنهم بدلاً من ذلك اتصلوا بالشرطة العراقية، وطلبوا منها إنزال الجثث عن الجسر. وقد تلكأت الشرطة العراقية أيضاً من الاقتراب من المشهد، وممرت عشر ساعات قبل أن تتوجه قوات المارينز والشرطة العراقية معاً لاستعادة الجثث؛ كي تشحن إلى قاعدة دوفر الجوية في الولايات المتحدة لتسريحها. ومع أن الشائعات ذكرت أن المتعاقدين أخرجوا من سياراتهم وأحرقوا أحياناً، إلا أن نتائج التشريح أثبتت على نحو قاطع أن موتهم كان نتيجة إصابتهم بوابل من الرصاص، وثمة إشاعة أخرى تقول: إن اثنتين من جثث المتعاقدين قطعت أشلاؤها وأطعمت للكلاب، ولكن ثبت أيضاً أن هذه الإشاعات عارية عن الصحة.

وبعد أن وصلت المشاهد الفظيعة لموت المتعاقدين والتدنيس الاحتفالي بجثثهم إلى وسائل الإعلام، لم يعد في ذهن الأمريكيين حدود لا يمكن تصورها لنذالة سكان الفلوجة المجانين. وبعاتقاد العراقيين الذين قاموا بتلك العملية، فإن ما حدث هو إعدام تقليدي دون محاكمة لمحتل كافر ومظهر من مظاهر الانتصار عليه. أما في نظر الأمريكيين، فإن الحادثة تمثل جريمة نكراء وخروجاً على أدنى معايير اللياقة الإنسانية، في وقت الحرب

أو غيره. وبدأت الحادثة وكأنها تمثيلية معادة للمأساة التي لحقت بالجيش الأمريكي في الصومال عام 1993. ولا يملك المرء إلا أن يتساءل إن كان المقاتلون في الفلوجة يؤدون دورهم أمام آلة التصوير وفي ذهنهم حادثة إسقاط الطائرة العمودية بلاكهوك؛ لأن إسقاط تلك المروحية في الصومال لقي تمجيحاً وحفاوة في المواقع الإلكترونية التابعة للمقاومة والإسلاميين، لكونها برهاناً على أن «الولايات المتحدة ما هي إلا نمر من ورق»، على حد وصف ابن لادن. فحين بثت وسائل الإعلام فيلماً ظهرت فيه جثث الجنود التابعين لقوات الرينجرز وهي تجر في شوارع مقديشو، أثارت تلك المشاهد ردة فعل اتسمت بالصدمة والاشمئزاز إلى درجة اضطرت الرئيس الأمريكي بعدها إلى دعوة الجنود الأمريكيين إلى الانسحاب من الصومال. وربما ظن الفلوجيون أن بإمكانهم تحقيق النتيجة نفسها بإظهار وحشية مماثلة في التعامل مع الجنود القتلى. وليس ثمة دليل ثابت يشير إلى أن ما وقع في الفلوجة كان أي شيء آخر سوى عملية قتل وتنكيل على يد حشود غوغائية محبطة، صبت جام غضبها على أشخاص كانت تظن أنهم قوات شبه عسكرية تابعة لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، غير أن ارتباط الصورة الذهنية بين ما حدث في الفلوجة وما حدث في الصومال واضح الدلالة في ذهن الشعب الأمريكي ذي الحساسية البالغة من منظر الموت.

ومع حلول مساء يوم الأربعاء، كان الجمهور الأمريكي مشدوداً إلى أجهزة التلفاز لا يطيق مشاهدة الفيلم، ولا يملك أن يشيح بوجهه عن الشاشة، إذ استحوذت عليهم المقاطع المعدلة من مشاهد الاحتفال والابتهاج التي أعقبت موت المتعاقدين، التي كانت تعرض مرة بعد مرة عبر قنوات الكيبل وشبكات التلفزة. وبعد أن مل الناس تلك المشاهد، تحولت وسائل الإعلام كمعادتها إلى المرحلة الثانية: وهي النقاش المهووس الموجه إلى ذاتها حول هل من اللائق عرض تلك المشاهد الفظيعة والشنيعة أمام الجمهور العام أم لا؟، وهل كانت التغطية الإعلامية للحدث زائدة على الحد؟ وهل كانت تقدم مساعدة للعدو بيث الفيديو الذي أخرجه لغايات الدعاية الإعلامية الموجهة؟ وبغض النظر عن نتيجة هذه المناقشات والمناظرات، فإن الشيء الذي بات واضحاً هو: أن عرض تلك المشاهد كان لأسباب جذب مزيد من المشاهدين لتلك المحطات، والأمر الآخر هو أن جمهور

المشاهدين بدأ يطلب المزيد من المعلومات عن ما حدث¹. أراد الناس أن يعرفوا ما هي الوظيفة التي يؤديها المدنيون المسلحون في مسرح الحرب العراقية. وعلى الرغم من أن الحكومة الأمريكية كانت تعتمد على المتعاقدين المستقلين منذ زمن، إلا أن القضية بدت وكأنها شيء جديد في نظر الشارع الأمريكي، وطلب الناس معرفة لماذا يقوم رجال وصفوا بالمتعاقدين «المدنيين» بمرافقة شاحنات كانت تمر بمنطقة معادية دون أن تكون تحت حماية الجيش؟.

إن المبدأ الذي يدين قتل المدنيين في الحرب، الذي تقرره اتفاقية جنيف لعام 1949 هو مبدأ راسخ في النفسية الأمريكية، كما أن القتل المتعمد للمدنيين هو عمل مستنكر مطلقاً. غير أن هؤلاء المتعاقدين ظهروا في منطقة مشتبهة بين المدني والعسكري. ومع أن هؤلاء المتعاقدين ليسوا في الخدمة العسكرية بالتحديد، إلا أنهم كانوا مسلحين، وعلى أهبة الاستعداد لإطلاق النار إن دعت الضرورة، وكانوا يقدمون دعماً مهماً لجوهر المهمة العسكرية الأمريكية، كما أن روايتهم بعد أن تزال الطبقات المتعددة للتعاقد من الباطن هي في النهاية من تمويل البنتاغون، ومع أن هذه الحقائق تقرب تحديد ماهيتهم من الجانب العسكري غير التقليدي، إلا أن بعض المحللين يصرون على القول: إن المتعاقدين الأمنيين يؤدون دوراً مدنياً؛ لأنهم لا يشتركون في العمليات العسكرية القتالية. غير أنه لو أتيح لتيغ، وباتالونا، وهيلفينستون مهلة للرد على إطلاق النار الذي وجه إليهم، لكانوا مشتركين في عمليات قتال عسكرية.

1- ثمة غاية مقصودة من تكرار عرض تلك المشاهد وغيرها من المواد الإعلامية التي يقصد منها نزع الصفة الإنسانية عن الشعوب العربية والشعب العراقي بوجه خاص في هذا السياق. ونزع الصفة الإنسانية عن العدو هو حيلة معروفة معهودة أُنقمت وسائل الإعلام الأمريكية والإسرائيلية استخدامها بهدف إخماد أي باعث من بواعث الاستنكار والاحتجاج لدى الرأي العام في تلكما الدولتين على ما يقترف من جرائم في حق الشعوب العربية. ولعل هذا يفسر ضعف الاحتجاجات الشعبية في الشارع الأمريكي على أعمال الإبادة والتنكيل التي راح ضحيتها مئات الألوف من أطفال ونساء وشيوخ عزل، في حين تستنهض الهمم هناك لإنقاذ حوت محصور في المحيط أو كلب عالق على حافة واد سحيق. وقد لعب الإعلام الأمريكي الذي توجهه المؤسسات الصهيونية دوراً قوياً في حشد التأييد الشعبي للحرب على العراق وتأجيج مشاعر الكراهية نحو العرب والمسلمين. وقد تعالت الدعوات في الإعلام الأمريكي بعد حادثة الفلوجة مطالبة بضرب العراق كله بالأسلحة النووية انتقاماً لمقتل المتعاقدين الأمنيين. [الترجم].

وفي الوقت الذي أفرزت فيه مشاهد التمثيل بحث المتعاقدين جدلاً حامياً على الصعيد العام حول القضايا المتعلقة باعتماد الجيش على المتعاقدين الأمنيين، كانت أربع أسر بمعزل عن الآخرين تبكي موت زوج، أو أب، أو ابن، وكان رفاق المتعاقدين يتأسون على موت أصدقائهم وزملائهم في المهنة. وطلب إلى تي-بوي أن يجمع مقتنيات المتعاقدين الذين قتلوا في الحادثة؛ وذلك لإرسالها إلى ذويهم. ويروي هو ما حدث قائلاً: «ذهبت وحدي إلى غرفتهم بعد وفاتهم وجمعت كل ممتلكاتهم ومقتنياتهم الشخصية. لقد أخذني البكاء في نصف الساعة الأولى في غرفتهم قبل أن أبدأ بفعل أي شيء، وراعني مجرد رؤية رسائلهم وصور أسرهم، ومجلات بناء الأجسام التي تعود لمايك وجيري، وقمصان ويسلي الهاوائية، لقد كنت محطماً مزعزعاً في ذلك اليوم بكل تأكيد».

أرسلت شركة بلاك ووتر ممثلين عن الشركة لإخبار أسر المتعاقدين بموت أحبائهم، وإعادة مقتنياتهم إليهم، وكان ذلك الإجراء هو الحد الأقصى للمسؤولية القانونية للشركة تجاه تلك الأسر، ويحصل القريب الأدنى من المتعاقد المتوفى على 46 ألف دولار وهي قيمة التأمين المقررة بموجب التأمين الذي يقرره قانون الدفاع الأساسي، ورسالة تعزية متأخرة من بول بريمر. غير أن ذوي المتعاقدين القتلى اختاروا توجيه معاناتهم عبر الدعاوى القضائية والحملات الإعلامية التي تركز على أن موت الرجال كان نتيجة مباشرة للاستعجال في تنفيذ عقد إي أس أس وتعطش بلاك ووتر لجني الأرباح.

وفي كانون الثاني/يناير من عام 2005، رفعت أسر مايك تينغ، وويسلي باتالونا، وسكوت هيلفنستون، وجيري زوفكو دعوى قضائية على شركة بلاك ووتر في محاكم ولاية نورث كارولينا. وسمت الدعوى بالتحديد أسماء توم باول، وجستن «شرك» ماكوان، وزعمت أن القرارات التي اتخذها هذان الشخصان، ونتيجة للمسؤولية المترتبة عليها، فإن شركة بلاك ووتر تكون مرتكبة لإهمال جسيم أدى إلى موت الرجال الأربعة. وكما جاء في معروض الدعوى فإن «شركة بلاك ووتر، وجستن ماكوان، وتوم باول، قد قاموا عن قصد وتعمد وبتجاهل طائش للأخذ في الحسبان مقتضيات الصحة والسلامة، بإرسال هيلفنستون، وتينغ، وزوفكو وباتالونا إلى منطقة الفلوجة المحفوفة بالمخاطر دون أن يكون الفريق مكوناً من ستة أشخاص، ومن دون توفير الحد الأدنى من وجود سيارتين مصفحتين، ودون فرصة معاينة

الطريق الذي ستسلكه القافلة، وجمع المعلومات الاستخبارية بشأن تلك المهمة، واستكشاف الطريق التي ستسلكها القافلة، وتحديد أفضل السبل لعملية النقل، أو حتى مراجعة خريطة للمنطقة، ودون إعطائهم الفرصة لفحص ومعاينة الأسلحة التي كانت معهم».

وتزعم الدعوى المرفوعة أن هذه المتطلبات جميعها منصوص عليها في العقد الذي وقعه الرجال وأن تعمد شركة بلاك ووتر تقديم المعلومات على غير حقيقتها هو غش واحتيال. وجاء في لائحة الدعوى أنه «حين قام المدعى عليهم بإرسال هيلفنستون، وتيغ، وزوفكو، وباتالونا في هذه المهمة الأمنية وتحت هذه الظروف، ودون توفير الحماية المناسبة، ولا المعدات ولا المعلومات المناسبة، فإنهم كانوا يعلمون أنهم مرسلوهم إلى وسط الفلوجة وأن احتمال عودتهم أحياء من تلك المهمة هو احتمال ضئيل... ونتيجة مباشرة لسلوك المدعى عليهم المتعمد والمستهتر والمقصود، ولتقصيرهم كما هو موضح في هذه الدعوى، فقد لقي هيلفنستون، وتيغ، وزوفكو، وباتالونا حتفهم في الحادي والثلاثين من شهر آذار/ مارس، من عام 2004».

سعت بلاك ووتر إلى نقل الدعوى إلى المحكمة البدائية الفدرالية، محتجة بأن قانون الدفاع الأساس أعطى الحكومة اختصاصاً حصرياً في نظر القضايا المتعلقة بموت أو إصابة المتعاقدين الذين يقدمون الدعم للعمليات العسكرية التي يقوم بها الجيش الأمريكي. ثم حاولت بلاك ووتر أن تتنع المحكمة الفدرالية برد الدعوى بحجة أن قانون الدفاع الأساس قدم تغطية شاملة لموت المتعاقدين وأن كل واحد من المتعاقدين قد قام بتوقيع إبراء من المسؤولية وإعلان قبوله بالعمل في الظروف المحفوفة بالمخاطر التي قد تؤدي إلى هلاكه. غير أن المحكمة رفضت رد القضية، وهو ما اعد نصراً أولياً لأسر المتعاقدين، وفي آب/ أغسطس من عام 2005، أعادت المحكمة الفدرالية القضية إلى المحكمة البدائية التابعة لولاية كارولينا الشمالية. وحتى كتابة هذه السطور، لم يصدر عن تلك المحكمة حكم بشأن هذه القضية. كما أن إريك برنس، مالك شركة بلاك ووتر، ليس بمقدوره تسوية القضية؛ لأن ذلك سيخلق أسبقية تتبع في القضايا المتعلقة بموت المتعاقدين الأمنيين. وفي عام 2006 وحده، رفعت على بلاك ووتر تسع قضايا من ذوي المتعاقدين من أسر أشخاص لقوا حتفهم في أثناء العمل.

لم تحدد القضية المرفوعة مبلغ التعويض عن الأضرار، تاركة تحديد ذلك لهيئة المحلفين بحسب ما تراه مناسباً، غير أن أسر المتعاقدين تقول: إن المال ليس هو الهدف من هذه الدعوى. وكما ذكرت دانيكا زوفكو في مقابلة مع صحيفة راليه دورهام نيوز أند أوبزيرفر: «لأعول على تلقي فلس واحد مقابل دم ابني ... إنني أقوم بهذا الجهد لكيلا يسيئوا إلى الآخرين كما أسأوا إلى ابني ورفاقه». ويتلقى المؤمن لمصلحتهم رواتب دورية بموجب قانون الدفاع الأساس.

بعد الهجوم الذي وقع في الفلوجة، عملت بلاك ووتر بكل عناية وحرص على تحسين الإجراءات الأمنية المتعلقة بعملياتها، غير أن الموت بقي يلاحق عقد إي أس أس. ففي الثاني من شهر حزيران/ يونيو، كانت إحدى السيارات رباعية الدفع التابعة لبلاك ووتر تسير بسرعة عالية على الطريق السريع قرب البصرة قبل أن تمر فوق حفرة في الشارع تكونت على أثر قذيفة مدفعية، فخرجت السيارة عن سيطرة السائق، وانقلبت وبدأت تتدحرج قاذفة ركابها من المتعاقدين الأمنيين إلى الخارج؛ فتوفي واحد منهم متأثراً بجروحه على الفور، وتوفي متعاقد آخر نجا من الحادث بعد تدهور حالته الصحية في المستشفى بعد ثلاثة أيام. إضافة إلى هؤلاء، توفي ثلاثة متعاقدين آخرين لقوا حتفهم إثر كمين نصب لهم على طريق مطار بغداد الدولي. وبذلك يصبح مجموع المتعاقدين الذين قتلوا في تنفيذ عقد إي أس أس تسعة متعاقدين. ويعكس هذا العدد نسبة مرتفعة وغير عادية في الوفاة تتجاوز نسبة الوفاة في الوحدات المقاتلة من الجيش الأمريكي في العراق، إلا أن أياً من حالات الوفاة كلها في صفوف المتعاقدين الأمنيين لم يُثر رداً شعبياً، وسياسياً، وعسكرياً كالرد الذي جاء على وفاة هيلفنستون، وتيغ، وباتالونا وزوفكو.

أصدر بول بريمر بياناً في اليوم الذي أعقب موت المتعاقدين الأربعة جاء فيه: «لن يمر موتهم دون عقاب». وهدد العميد مارك كميته، نائب منسق عمليات قوات التحالف، قائلاً: «سيكون الرد في الوقت والمكان اللذين نختارهما نحن، وستعقب المجرمين، وسنقضي عليهم أو نأسرهم، وسنخضع الفلوجة». وفي حين أن الذين هلكوا في الفلوجة كانوا من المتعاقدين وحسب، إلا أن من الواضح أن أفراد الجيش الأمريكي في العراق كانوا يعدون موت هؤلاء المتعاقدين خسارة في صفوف الجيش. وظهر أيضاً أن التكيل غير الإنساني

بجثثهم يستحق عقاباً شديداً؛ فالانتقام قادم، وكان الجنود ينتظرون متحفزين صدور إشارة للانطلاق للأخذ بالثأر.

ساعدت الضغوط الإعلامية المستمرة لانتهاك حرمة جثث المتعاقدين في حفز الرئيس الأمريكي على القيام بالرد، وطالب الشارع الأمريكي المصدوم مما حدث بردّ سريع وحاسم. لكن قائد المارينز الجنرال جيمس كانوي حث على توخي الحذر قائلاً: إن على الجيش أن يرفض الدعوات التي تنادي بالانتقام. فمدينة الفلوجة لم تكن أخطر المدن العراقية وحسب، بل كانت مرشحة لأن تكون ستالينغراد أو غروزني - ساحة معركة دموية داخل مدينة مأهولة بالسكان. إلا أن الفريق ريكاردو سانشيز رفض تحذيرات كانوي. وبعد خمسة أيام من حادثة القتل، توجهت قوات المارينز إلى الفلوجة، وبعد مقتل سبعة من المارينز وجرح مئة، توقفت عملية «البأس اليقظ» في مكانها بعد أقل من أسبوع من المعارك والاقتتال.

ونجحت قوات المارينز في إخضاع الفلوجة مؤقتاً، وقامت بنقل السيطرة على المدينة إلى كتيبة الفلوجة، وهي قوات ميليشيا جرى تشكيلها على عجل من ألف جندي سابق في الجيش العراقي من الفلوجة. وبدلاً من أن تقوم كتيبة الفلوجة بإخراج المقاومة من المدينة ومنعهم من دخولها، عملت على مساندتهم أو الالتحاق بهم، وصارت الأسلحة والمعدات التي سلمها الجيش الأمريكي للكتيبة بيد المقاومة، كما أن عدداً من قوات الأمن تورطوا في عمليات خطف وهجمات تستهدف الأمريكيين ومعاونيهم. وفي تشرين الثاني/نوفمبر جاءت الطامة على المدينة مع انطلاق عملية «شبح الغضب» التي نسقت بين قوة الأسلحة الأمريكية كاملة والجنود الأمريكيين تاركة الفلوجة مدينة مدمرة على أنقاضها. وحوّلت قصص الدفاع البطولي عن المدينة والتضحيات التي قدمها سكان هذه المدينة الصناعية إلى أسطورة في العالم العربي. وحتى في مقديشو، كان المسلحون الصوماليون يلبسون قمصاناً مطبوعاً عليها كلمة «الفلوجة».

في الحادي والثلاثين من آذار/مارس، 2005، وإحياءً للذكرى الأولى للحادثة، قامت قوات المارينز التي تسيطر على المنطقة المحيطة بالفلوجة بدعوة بلاك ووتر إلى حضور حفل لتأبين زملائهم الذين قضوا نحبتهم في ذلك المكان، وتوجه مايك رش، مدير

العمليات في بلاك ووتر، ترافقه مجموعة صغيرة من المتعاقدين إلى معسكر ياهاريا شرقي الفلوجة، حيث قدم ضابط القيادة عرضاً مفصلاً لكيفية استيلاء المارينز على المدينة. ووافق الحضور جميعهم على أن سكان الفلوجة يستحقون ما حل بهم بعد ما فعلوه «بمجموعهم» للمتعاقدین الأربعة. ثم توجهت بعد ذلك مجموعة من المارينز لتأمين المنطقة المحيطة بالجسر الذي أطلق عليه اسم «جسر بلاك ووتر» قبل أن تلحق بهم قافلة بلاك ووتر متخطين المنازل المهدامة والمهجورة الموسومة بإشارة (x) أو (o) التي تميز منازل المتعاطفين مع المقاومة من المتعاطفين مع الأمريكيين على الترتيب. واحتشد الجميع على الجسر المتأرجح فوق مياه نهر الفرات الموحلة للوقوف بصمت حداداً على المتعاقدين الذين علقت أشلاؤهم عليه.

ثم ألقى مايك رش كلمة موجزة نيابة عن إريك برنس، شكر فيها قوات المارينز على ما فعلوه في الفلوجة، والتقط أعضاء فريق المبة صوراً تذكارية، ووزعوا قمصاناً طبع عليها شعار بلاك ووتر، وتحدثوا إلى المارينز عن عمليات القتل المؤكد والمعارك التي جرت في المدينة في معركة الفلوجة. وأخبر قائد قوات المارينز فريق بلاك ووتر بأن رجاله ما زالوا «يعضون أناملهم» حنقاً، لأنهم لم يشفوا غليلهم من الثأر بقتل المزيد من سكان الفلوجة- وواضح أن تدميرهم شبه الكامل لمدينة الفلوجة لم يشبع رغبتهم في محو المدينة عن الوجود.

يقول تي-بوي: إنه يحب المارينز على ما فعلوه في الفلوجة، ولا يخفي افتخاره بأنه كان في السابق أحد جنود المارينز. ولكن لا يمكن عد أقسى الجنود المحترفين رجلاً ألياً منزوع الأحاسيس، فتقطيب جبين تي-بوي والرعشة التي تطفئ على صوته حين يستحضر ذكرى تأبين رفاقه يشهد على هذه الحقيقة. «كنت آخر شخص يصل إلى الجسر بعد خروجنا من عرباتنا المصفحة، كنت أشعر بثقل الحركة، وغشيتني مشاعر جياشة... وبيننا أنا متوجه إلى ذلك الجسر الأخضر اللعين، لم يعد بإمكانني حبس دموعي، لم يسبق لي أن بكيت مثل ذلك البكاء إلا حين دخلت غرفتهم لجمع مقتنياتهم بعد الحادثة. وها أنا ذا بلباسي العسكري الكامل وخوذتي أبكي كالطفل الصغير، لقد أمضيت عدة دقائق أتأمل الجسر- أتمعن المكان الذي علق فيه رفاقي في بلاك ووتر بعد أن مثل بجثثهم. كان الموقف

فياًضاً بالمشاعر. وكنت في غاية النعمة والغضب، كنت أشعر برغبة جامحة في التوجه إلى المدينة وإطلاق النار عشوائياً على الناس هناك دون شعور بالذنب... لا يهمني من أقتل؛ أريد الثأر لنفسي، لم يكن في ذهني شك أن بعض هؤلاء الناس كانوا على بعد كيلومتر من الشارع. وأظهرت التغطية الإعلامية السيارات وهي تتعرض للنهب، والجثث وهي تتعرض للتمثيل على يد سكان المدينة العاديين- كان بعضهم من الشباب وبعضهم الآخر من كبار السن، لقد كنت غاضباً جداً؛ لأن بعض هؤلاء كانوا على بعد مرمى حجر».

يضع تي-بوي غضبه جانباً حين يؤدي عمله. إلا أن من الواضح أن تلك الحادثة قد تركته في نفسية جريحة. فحين قابلته أول مرة حين كان مع فريق الممبة في دورية طريق المطار، كنت أظن أن سلوكه الانفرادي في «تحديد النطاق» كما يسميه رفاقه، كان أسلوبه الخاص في التركيز على المخاطر المحيطة في أثناء السير في الطريق. ولما ازدادت معرفتي به تبين لي أن تلك العزلة تعكس معاناة روح شريرة كامنة داخله أكثر من أي شيء آخر. وإلى جانب الحمل الثقيل الذي يرهق قلبه، يحرص تي-بوي على حمل تذكارات رمزية لزملائه الأربعة- وهو التذكارات الذي مسح به أعمدة جسر بلاك ووتر في يوم تأبين ذكرى رفاقه: «أحضرت معي علماً أمريكياً أخذته من غرفة زملائي، ولا أعرف لمن كان هذا العلم، لكن المهم لي أنه ملكهم جميعاً، وهو جزء مني كذلك. أخرجت ذلك العلم الأمريكي الصغير من جيبتي ومسحت به الجسر عدة مرات، وقلت في نفسي: كم أنا مسرور بالانتقام الذي ألحقه المارينز بالفلوجة».

ويبدو أن تذكارات العقوبة التي أوقعتها قوات المارينز بالفلوجة وأهلها تزيد في بأس تي-بوي وصلابته، ويتحوّل هذا الشاب المعذب المهزوز إلى جندي مهيب مقتحم سابق من المارينز: «ما زلت أحتفظ بذلك العلم حتى هذا اليوم، وأنا أحمله معي منذ ذلك الوقت في كل مهمة أكلف بها».

